الهزيمة ، تعيد اكتشاف نفسها واكتشاف تاريخها، وان صوت الشعر يدخل المدينة ، لا ليبحث عنها، بل ليكتشف صورة جديدة لغزة التي تقاتل . عندما يصل درويش الى لحظة « الصمت من اجل غزة »، فانه يتخلى عن التركيب الشعـري ، ليدخل في الشعر الحي . هذا الشعر الذي كانت قصيدة « الخروج من ساحل المتوسط » ، لافتته الاولى يصبح هنا شهادة حية من اجل غزة . وقفة على باب المدينة للتعلم من دروسها . هنا يأخذ النص شكل المقال ، دون ان يتخلى عن الصور الشعرية المتلاحقة التي تعطيه القدرة على الاحاطة بالحالة، دون اعادة انتاجها شعرا . اي ان غزة تبقى في هذا النص عارية قدر الامكان ، لتثبت من خلال فاعليتها وحدها قدرتها على ان تكون محطة ومدرسة فعلية للنضال الذي لا نراه سوى ممارسة واقعية. « لان الزمن في غزة ليس عنصرا محايدا . انه لا يدفع الناس الى برودة التأمل ، ولكنه يدفعهم الى الانفجار والارتطام بالحقيقة » . العناصر الطبيعية التي وقف الشعر عندها طويلا ، لينقل فلسطين مأساة او تكونا ثوريا تصبح هنا فعلا يصنع تاريخه بنفسه ، « لانها برتقال ملغوم ، واطفـال بدون طفولة ، وشيوخ بلا شيخوخة ، ونساء بلا رغبات. لانها كذلك ، فهي اجملنا واصفانا واغنانا واكثرنا جدارة بالحب » .

فلسطين كما هي : على ابواب « ميونيخ » يقف الشعر ليروي حكاية فلسطين للعالم ، كما هي هذه الحكاية . لا كما يريدونها . ولكن الحكاية حين تريد الوصول الى هذا « العالـم » ، فانها لا تستطيع ان تأخذ شكلا موضوعيا . ترتطم بحقائقه. تدمرها . تشير الى الواقع في اكثر صوره عريا . يجمع درويش الحالة ويجعلها تخرج كالبراكين التي لا تتوقف . على أية ارض تقف .

« ــ لماذا نوقظ العالم من النوم ؟

ــ هذا ليس صوتي هذا صوت ارتطام جثتي بالارض » .

حتى جثتنا ، لا يسمح لها بأن تحدث اصوات ارتطامها بالارض . لذلك حين تأتي اللغة لتنقل هذا الصوت ، فانها تصطدم بعجز اللغات، عن حمل هذا الواقع على رؤوس الكلمات . فتأتي الكتابة ، محمولة على جميع محاور الانفجار . تركيب لا يقف على منخفض الا لينتقل الـى رابية مرتفعة . وحين يصل الى قمة البركان ، يخرج الحقد هذه المرة عاريا ، يرفع صوته . « ليست فلسطين ارضا ــ ايها السادة القضاة . لقـد صارت فلسطين اجسادا تتحـرك ... تنتقل في شوارع العالم ، وتغني اغنية الموت ، لان المسيح الجديد ترجل عن الصليب . امتشق عصا وخرج من فلسطين ! » هـذه المعايشة الفريدة التـي يسجلها هـذا النص ، لا تتوقف عنـد الصور المتراكمة ، بل تحول هذه الصور الى نسيج فني داخل شروط الحـركة والفعل . مـن هنا يأتي النص ، ليحمل كثافة شعرية ، واحتراقا نثريا . أي يتوحد بالموقف ــ الحالة كاسرا جميع القواعد المتعارف ، ليصل الى مخاطبة نادرة مع ما يسمى بالرأي العام العالمي . تبقى هذه المخاطبة مشروطة بالآخر الذي تتوجه اليه . لذلك يأتي النص ، لا ليحمل فلسطين كما هي في الواقع ، بل ليضيء جانبا جديدا من هذا العذاب الذي تسميه اللغـة الشعرية فلسطين . الغربة عن هذا العالم ، تؤكد الجانب الآخر من الواقع . الالفة ، التوحد ، مع الارض وجراحاتها . فالتجربة هنـا تتحول الى استكمال دائري ، لا يمكن الخروج منه الا بتفجير الواقع . فالدائرة التي ترسمها هذه النصوص ، تحمل من داخلها خروجا منها ، يبدأ عند ارتطام « الجثة بالارض » .

نكتشف داخل هـذا المدى الشعري في تجربة درويش الجديدة القدرة على الوصول الى القضية. من داخل التجربة الثورية . يأتي الشعر هنا ، خروجا للكلمات التي تتمرد على معانيها وتتواصل في حركة التفاف واسعة ، مشكلة لوحة شاسعة الاطراف ، ينغرس في داخلها وقع اقدام المرحلة المقبلة . خروج الكلمات من قواميسها في هـذا الامتداد الشعري ، يصل الى اغناء ما اصطلحنا على تسميته بوسط السياق ــ اللوحة ، وتحويله الى محطة للانفجار الذي يميز صوته في تداعيات الانفعال القادرة دائما على دمج الصور في بنيتها هي وليس الوقوع في تشريط تداعي الصور الذي يتحكم بالانفعال في الكثير من ادبنا المعاصر . فتجربة درويش تمنح المدى الذي تقف أمامه قدرة علـى الحركة بحرية اكبر على مشارف الانهار العميقة التي ترفد بحـر خصوصية التجربة الفلسطينيـة الدموي ، هذا البحر الذي يبـرز صاخبا ومليئا بالقدرة على صياغة امواجه .